جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الانبار

مجلة جامعة الانبار للعلوم الإنسانية

مجلة علمية دورية محكمة فصلية

عدد خاص بالمؤتمر العلمي الأول لكليات العلوم الإنسانية

١١-١٢ نيسان ٢٠١١ المجلد الأول

أ.د. عبد الناصر صبري شاهر الراوي – رئيس التحرير

أ.م.د. علي حسين علي – مدير التحرير

أعضاء هيئة التحرير

أ.د. عبد الستار مطلك
أ.م.د. مشعل محمود فياض
أ.م.د. طارق عبد احمد
أ.م.د محمود عبد الرزاق

رقم الإيداع في دار الوثائق والكتب ببغداد(٧٥٣) لسنة ٢٠٠٢
الرقم الدولي ISSN 1995-8463

١٤٣٢هـ
٢٠١١م

مصطفى صادق الرافعي شبهات وردود

د. أحمد عبد العزيز عواد

جامعة الانبار- كلية الآداب / قسم اللغة العربية

مقدمة:

الحمد لله الذي خلق الإنسان فعلمه البيان والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفصح أهل الأرض انسهم والجان وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان وبعد: فهما مبحثان اثنان ليس لهما ثالث أقمت عليهما بناء هذا البحث، تكفل الأول بإحصاء (مجمل الشبهات) وأباح الثاني عن(منتقى الإشادات) ،ثم جاءت الخاتمة تتوج البحث بأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج وإشارات بعد أن كسى البحث صاحب المقام الرافعي أجمل حلة وأروع بيان.

فهو مصطفى صادق الرافعي ولد عام ١٨٨٠ م في قرية بهتيم بمصر ونشأ نشأة إسلامية، حفظ القرآن وعمره عشر سنوات، وقرأ الصحاح واطلع على أمات الكتب في اللغة والأدب. لم يكمل من الدراسة سوى الابتدائية بسبب مرض الصمم الذي أصابه على إثر حمى شديدة ألمت به.

قضى الرافعي حياته يدافع عن العروبة والعربية والإسلام فقد وقف ضد دعاة السفور في عصره وكذلك ضد مروجي فكرة إشاعة اللغة العامية من أذناب الفكر الغربي.

كانت له معارك أدبية عنيفة خاضها مع بعض أدباء عصره من اشهرها معركته مع الكاتب طه حسين والأخرى مع العقاد. وخير ما يجسد تلك المعارك كتابيه: «تحت راية القرآن» و «على السفود، نظرات في ديوان العقاد».

له مؤلفات كثيرة من أبرزها «وحي القلم» في ثلاثة أجزاء و «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» و «أوراق الورد» و «كتاب المساكين» و «ديوان الرافعي» في ثلاثة أجزاء وكتب غيرها.

توفي سنة ١٩٣٧م بعد أن صلى الفجر وقرأ شيئا من القرآن فشعر بحرقة في معدته مات على إثرها رحمه الله. (١)

لم يكن الرافعي وحده من عباقرة العالم الذين ظلمهم التاريخ فلم يحضوا بالاهتمام والتقدير الذي يستحقونه والذي يناسب المكانة والمنزلة التي بلغوها.

والرافعي هذا من أولئك النفر القليل الذين يشار إليهم بالبنان حين يذكر الأدب ولا سيما الأدب الحديث؛ لا لشيء إلا لأنه بلغ بالأدب ذروته وحاز على لقب نابغة الأدب وإمامه والأديب الملهم وغيرها من الألقاب التي سأتي على ذكرها في المبحث الثاني من هذا البحث.

حصل على تلك النعوت والمناقب بفضل جهده وجهاده في الدراسة والبحث والمثابرة التي امتزجت مع ما يمتلكه الرافعي وما مَن الله به عليه من موهبة مهدية ونشأة إسلامية اكتسبها من البيئة الرافعية التي عاشها في كنف أبيه وأسرته، ثم التقبل الجيد الذي أحاطته عناية الله جل وعلا حين اصطفاه لأن يكون في يوم من الأيام الحارس الأمين للغة العربية وآدابها وللقرآن العظيم من ثم وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم؛ فهو القائل: (ويخيل إليّ دائما أني رسول لغوي بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه) (٢).

مصطفى صادق الرافعي

شبهات وردود

الدكتور:أحمد عبد العزيز عواد

جامعة الأنبار كلية الآداب

مقدمة:

أود قبل الخوض في موضوع البحث الأساسي أن أعرف بالرافعي تعريفا موجزا يجعل القارئ على علم ولو يسير بهذا الأديب الأريب والكاتب المبدع الذي غيب عن الساحة الأدبية ردحا من الزمن لغاية أو لأخرى سيوضحها الآتي من الكلام.

فهو مصطفى صادق الرافعي ولد عام ١٨٨٠ م في قرية بهتيم بمصر ونشأ نشأة إسلامية، حفظ القرآن وعمره عشر سنوات، وقرأ الصحاح واطلع على أمات الكتب في اللغة والأدب. لم يكمل من الدراسة سوى الابتدائية بسبب مرض الصمم الذي أصابه على إثر حمى شديدة ألمت به.

قضى الرافعي حياته يدافع عن العروبة والعربية والإسلام فقد وقف ضد دعاة السفور في عصره وكذلك ضد مروجي فكرة إشاعة اللغة العامية من أذناب الفكر الغربي.

كانت له معارك أدبية عنيفة خاضها مع بعض أدباء عصره من اشهرها معركته مع الكاتب طه حسين والأخرى مع العقاد. وخير ما يجسد تلك المعارك كتابيه: «تحت راية القرآن» و «على السّفود، نظرات في ديوان العقاد».

له مؤلفات كثيرة من أبرزها «وحي القلم» في ثلاثة أجزاء و «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» و «أوراق الورد» و «كتاب المساكين» و «ديوان الرافعي» في ثلاثة أجزاء وكتب غيرها.

توفي سنة ١٩٣٧م بعد أن صلى الفجر وقرأ شيئا من القرآن فشعر بحرقة في معدته مات على إثرها رحمه الله. (١)

لم يكن الرافعي وحده من عباقرة العالم الذين ظلمهم التأريخ فلم يحضوا بالاهتمام والتقدير الذي يستحقونه والذي يناسب المكانة والمنزلة التي بلغوها.

فالرافعي هذا من أولئك النفر القليل الذين يشار إليهم بالبنان حين يذكر الأدب ولا سيما الأدب الحديث؛ لا لشيء إلا لأنه بلغ بالأدب ذروته وحاز على لقب نابغة الأدب وإمامه والأديب الملهم وغيرها من الألقاب التي سآتي على ذكرها في المبحث الثاني من هذا البحث.

حصل على تلك النعوت والمناقب بفضل جهده وجهاده في الدراسة والبحث والمثابرة التي امتزجت مع ما يمتلكه الرافعي وما مَن الله به عليه من موهبة مهدية ونشأة إسلامية اكتسبها من البيئة الرافعية التي عاشها في كنف أبيه وأسرته، ثم التقبل الجيد الذي أحاطته عناية الله جل وعلا حين اصطفاه لأن يكون في يوم من الأيام الحارس الأمين للغة العربية وآدابها وللقرآن العظيم من

---

(١) بإيجاز من كتاب «حياة الرافعي» للكاتب محمد سعيد العريان.

ثم وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم؛ فهو القائل: (... ويخيل إليّ دائما أني رسول لغوي بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه) [1].

كل هذا اجتمع للرافعي والكل يعلم ذلك بمن فيهم أعداؤه أنفسهم، لكن الظلم وقع والحق اندثر والخُطّة نجحت على ما يريده أعداء اللغة والدين وأصدقاؤهم ممن تأثروا بالفكر الغربي ولم يجدوا سبيلاً لإظهار أدبهم وحصول شهرتهم إلا بهذا العمل الذي طمسوا به الحق عند غيرهم ليرفعوا أدبهم الدخيل.

وما دراستي للرافعي وأدبه وما تميز به من الفكر والبيان بشكل خاص بعدما يقرب من سبعة عقود مضت من الأعوام على وفاته إلا دليل على أن الأدب الصحيح الناضج النابض لا يموت مهما أهيلت حوله الرمال ومهما علاه الغبار وهذا مما لا يختلف فيه اثنان والتأريخ يشهد بذلك.

ولقد أحصيت العديد من الشبهات التي أثارها الناس وفي مقدمتهم معاصرو الرافعي من أدباء أو قراء أو نقاد عن شخصه وأسلوبه وفكره وما يتعلق بذلك.

وهاأنذا أقوم بسرد معظم ما أثاروه لأرد عليه إنصافاً لا تعصباً مستعيناً بما توافر لي من معلومات حصلت عليها من خلال قراءتي المعمقة لفكره ولأسلوبه وما بذله في الدفاع عن العربية والإسلام وعن تراثنا العربي الخالد.

ومستعيناً أيضاً بما قاله غيري من الأدباء والباحثين المنصفين في هذا الشأن وسأبدأ بذكرها على حسب أهميتها وأثرها المباشر في الرافعي وأدبه.

وإني إذ أذكر هذه الشهادات أنظر من خلالها حيزاً واسعا أضع في امتداده المدائح التي أرسلتها وسأرسلها للرافعي وأدبه بعد أن وجدت المسوّغ الذي يمنحني الحرية في الإدلاء بها وإذاعتها للناس حتى ولو طافت فوق جميع صفحات البحث.

---

(١) وحي القلم: ٣ / ١٥٢.

المبحث الأول

مجمل الشبهات

المبحث الأول
مجمل الشبهات

*** *** ***

أولاً: شبهة الغموض

من أولى التهم التي اتهم بها الرافعي هي صفة الغموض في أسلوبه، وأن أسلوبه أقرب إلى الطلاسم من حيث إنه معقد لا تكاد تفهم منه شيئاً ثم إن عباراته كلها رموز لا يمكن للقارئ ولا الناقد حتى فكها، وهذا هو زعمهم وهذا هو قولهم أو إن شئت فقل (افتراؤهم).. فهؤلاء وأمثالهم ممن لم يستطيعوا الوصول إلى أهدافهم الأدبية ولا إلى ما يتطلبه الأدب ويريده منهم القارئ ضاقوا ذرعاً بما عند الرافعي وما توافر له من تلك الصفات فلم يروا بدا من أن يلقوا التهم على هذا الرجل البريء الواحدة تلو الأخرى سعياً منهم لإسقاط أدبه وطمس شهرته وغيابه عن الساحة الأدبية التي تربعوا هم على عرشها.

يقول العريان وهو يتحدث عن كتاب الرافعي الأول في خواطر الحب (حديث القمر) :

(ومن هذا الكتاب كانت أول التهمة للرافعي بالغموض والإبهام واستغلاق المعنى عند فريق من المتأدبين [1] ومنه كان أول زادي وزاد كثير من القراء الذين نشأوا على غرار في الأدب لا يعرفه ناشئة المتأدبين اليوم) [2].

ولما صدر كتاب الرافعي الثاني في هذا المعنى **(رسائل الأحزان في فلسفة الجمال والحب)** زعم الدكتور طه حسين أنه لم يفهمه كذلك. ؟

وهكذا بالنسبة إلى كتاب **(تاريخ آداب العرب)** الذي رماه الكاتب نفسه بالنقص وأنه لم يفهم منه شيئا **!.** علما أنه عاد وأثنى عليه عام ١٩٢٦ عند كتابته عن الشعر الجاهلي). [3]

(وها هم يذهبون إلى أنه لا أسلوب له ويعدونه مع الغموض آية الجمود والوهن في أدبه، وهو رأي من الرأي لا يثبت على النظر، يكشفه ما قيل في خصوصية تكوينه المفضي ضرورة

---

(١) يعني الدكتور طه حسين ومؤيديه.

(٢) حياة الرافعي: ٧٥.

(٣) انظر كتاب من أدب الرافعي ومعاركه للدكتور عباس بيومي عجلون ٧٧ – ٧٨. وانظر كذلك: تحت راية القرآن /الرافعي : ١٠٥ وما بعدها.

إلى خصوصية أسلوبه، فضلاً عن الفرق الظاهر الباد، بين أسلوبه وكل أسلوب غيره قديماً أو حديثاً المنكشف من فوره لكل ناقد مميز، عارف بأطوار الكلام، بصير بالأساليب)[١].

ويعجب النجار كيف يتهم الرافعي بالغموض وهي الصفة نفسها التي من أجلها جعل البارودي إماماً للشعر العربي الحديث لتوافرها في شعره , وهكذا القول في الغموض: فبينما هو من محاسن الشعر حين تعد محاسنه ومن المغريات بقراءته عند من يتوفر على قراءته ومن وجوه الإمتاع فيه إذا به يصبح وبالاً ونقمة على الرافعي ويعد من مساويه التي لا تغتفر وأحد الأمور التي تذكر حين يراد الغض منه والزراية عليه [٢]. كما يعجب النجار من تلك الجناية على الرافعي معبراً عن ذلك بالقول: (ويبدو ذكر الغموض كلما ذكر الرافعي أشبه شيء بـ (فعل منعكس شرطي) عند من يذكر ! كأنه (الجفاف) الذي يذكر أسلوب العقاد وهو عجيب من أحكامهم، وأعجب منه تعليله بمنطقيته ! يرون أنه جاف لأنه منطقي ...! فيه جفاف المنطق وصرامته ...! من أجل المنطق جاف صارم..! ألا يمكن من صفته – مكان ذلك – أن يكون جامعاً محيطاً لأن صاحبه عالماً ودقيقاً ومحرراً، لأن صاحبه عاقل، وقريباً سهلاً لأنه متمرس حاذق ! هكذا وكأن أساليب غيره ممن يستعملون المنطق ولا يرون ما يكتبون على أحكامه ومقتضياته رياض نضرة وجنات غناء) [٣].

وللكاتب عبد الوهاب عزام رأي فصل في قضية الغموض في أسلوب الرافعي يفهم من قوله:

(والرافعي يغرب أحيانا، أو يدق فينبهم معناه، وفي هذا ثورة بعض الأدباء عليه، ولكن الذي آمن بقدرته فيما وضح واستبان من كلامه يؤمن انه حين يغمض يتحيل لمعنى دقيق خفي، لم ترضه الألفاظ، ولم يذلله الكتاب، أو يتلطف لفكر نفور آبد ليختله. وكثيرا ما يخيل إليّ وأنا أقرأ آبدات الرافعي أني اتبع بصري طائرا يرتفع في اللوح، ثم يرتفع حتى تضمره السحب فلا تراه العين، ولكن تعرف أنه في جوّ السماء فإن قيل: إن هذا حكم الإعجاب والرضا، قلت: فإني أتهم نفسي، فلا أدفع عن هذه الأوابد، ولكن " وحي القلم " بريء من الغموض والإبهام، وإنما أكتب اليوم عن " وحي القلم ") [٤].

ويبدو لي بعد ذلك أن أولئك الذين اتهموا الرافعي بذلك لم يقرؤوا للرافعي ولو شيئاً يسيراً ولم يعرفوا من مؤلفاته سوى عناوينها لذا فهم **أحد أمرين:** إما أنهم اكتفوا بما يتناقله الآخرون ورضوا بالسماع فقط دون التمحيص والتأكد والنظر والتدقيق التي درسوها في أصول البحث وقرؤوها في

---

(١) على السفّود، التصدير: عز الدين النجار ١٠.

(٢) ينظر: المصدر نفسه ١٠.

(٣) على السفود: تصدير عز الدين النجار: ١٥.

(٤) الرسالة: العدد ١٨٦، تاريخ ٢٥ / ١ / ١٩٣٧.

صفات الباحث، **أو أنهم** لم يصلوا إلى المستوى الذي وصله الرافعي من دقة الأسلوب وسعة الخيال والبيان الراقي، فلم يفهموا شيئا من كتاباته ثم لم يجدوا مخرجا من مأزقهم هذا سوى الإنكار عليه واكتفوا بالقول: أسلوب غامض وألفاظ معقدة وعبارات ليست من العربية والبلاغة في شيء.

لذا نجد الكاتب أحمد حسن الزيات يهمس في آذاننا فيقول إن (... أكثر الذين كرهوه – يعني الرافعي – هم الذين جهلوه: كرهه الأدباء لأنه أصحر لهم بالخصومة فانفرجت الحال بينهم وبينه. وكرهه المتأدبون لأنه رفع مقياس الأدب فوسمهم بالعجز عنه. وأنكره العامة لأن الأمر بينهم وبينه كالأمر بين العمى والنور ! أنما يحب الرافعي ويبكيه من عرف وحي الله في قرآنه، وفهم إعجاز الفن في بيانه، وأدرك سرّ العقيدة في إيمانه...) [1]

ولو أنهم قرأوا كتب الرافعي وأمعنوا النظر فيها لرأوا ما تقر به أعينهم، ولوجدوا ما يسبي عقولهم ويدعوهم إلى العكوف عليها، حين تغنيهم عن كثير مما كانوا يطلبون، ثم لجاءت أحكامهم على العكس مما قالوا وما زعموا.

وإني لأعتقد جازما أن في كتاب **(وحي القلم)** وحده ما يكفي لما قلته بسبب ما فيه من القيم الشعورية والقيم التعبيرية التي يقف القارئ عندها لا يدري ما يقوله من دهشته مما يسمع ويرى.

يضاف إلى هذا السبب سبب آخر يبدو في حقدهم وكراهيتهم وتجنيهم على هذا الرجل الهمام، وهو أن أولئك النقاد والأدباء وبعض الذين أخطأوا التصويب من غير عمد وغيرهم ممن فقدوا العدل والإنصاف، كل أولئك كانوا بعيدين عن البيئة الإسلامية النقية. أما الرافعي فمما لا يخفى على أحد أن كتاباته حتى الغزلية كان يمزجها بالتعاليم الإسلامية التي تربى عليها، يشهد له دفاعه عن القرآن الكريم ولغته وما كتبه في ذلك من مقالات وكتب ومؤلفات، لذا فهؤلاء المتهمون الجناة في واد والرافعي في واد آخر، والمثل الشائع يقول: (المرء عدو ما جهل)، وربما لا يتسنى لأحدهم فهم إرادة المعنى عند الرافعي في أحايين كثيرة لابتعادهم عن حقيقة الإسلام والغاية التي من أجلها خلقوا. لا بل أنهم لم يعرفوا حقيقة الأدب نفسه وكيف أن ذلك الأدب ما هو إلا رسالة في الحياة يؤدونها وهي من أعظم الرسائل الموجهة إلى المجتمع بأسره وأن من دونه **(أي الأدب)** لا يمكن للعالم أن يسير ولا للدين أن يسود.

ولعل من دواعي حقدهم _أخيرا_أنهم لم يتحملوا ذلك التراجع الذي ألم بهم إثر التقدم الذي لحظوه آنذاك عند الرافعي والتفاف الناس حوله ومنهم علية القوم في مصر ولا سيما أنه أديب

---

(١) مقالة للزيات بعنوان: مصطفى صادق الرافعي، نقلا عن كتاب كلمة وكليمة: ٧٠ – ٧١

ذاعت شهرته في بداية شبابه وأنه لم يكمل من الدراسة سوى الابتدائية وهذا مما زاد غيظهم عليه وحقدهم.

ويظهر هذا الحقد واضحا جليا حين نسمع من الشيخ خليل حوراني رأيه الذي ينصر فيه أسلوب الرافعي وهو يتكلم على كتابه **(تاريخ آداب العرب)** وتحت عنوان **(جاحظي الأسلوب)** فيقول بجهل أعدائه ومبغضيه معبراً عن ذلك بقوله إن (الذين يضيقون بالكتاب الآن يضيقون به لأسلوبه البياني فالرافعي في كتاباته جاحظي الأسلوب، يهتم بالديباجة العربية اهتماماً يرتفع بقارئه، ولا يحاول ان يهبط إلى مستوى الأسلوب الصحافي العام، وقد يكون الرافعي أوغل في هذا الاتجاه إيغالاً جعل بعض الصفحات تحتاج إلى اتئاد في المراجعة، كما كتب له مقدمة يضيق بها من لم يألف كتب التراث، ويقرأ آثار الجاحظ وابن المقفع وأبي حيان من أئمة البيان ... فأسلوب الرافعي في مقدمات الفصول ينحو هذا النحو، وهو منحى يألفه ذوو الأذواق الأدبية، من نابهي العصر، ولكن الذين يكتبون كما يتحدثون، يضيقون بأسلوب الرافعي، كما يضيقون بأساليب البلغاء من أمثال ابن المقفع وأبي حيان !! وقد ظل الرافعي على مذهبه البياني في سائر ما كتب، ولكنه تخفف قليلاً حين اجتذبته الصحافة الأدبية إلى ميدانها، فلم يترك جمال الصياغة وروعة التحليق الفكري ولكنه حاول أن يقرب معانيه قدر المستطاع، ولا يزال للكاتب الكبير عشاقه الأصلاء ممن يعرفون روعة البيان الأدبي، بل فيهم من يرى الرافعي فرداً لا نظير له في ارتقائه الأدبي)[1].

ومن أحسن ما قيل في وصف أدب الرافعي والذب عنه في هذا الخصوص ما قاله تلميذه البار وصاحبه الوفي محمد سعيد العريان (والرافعي عند طائفة من قراء العربية أديب عسر الهضم، وهو عند كثير من هذه الطائفة متكلف لا يدر عن طبع، وعند بعضهم غامض معَّمى لا تخلص إليه النفس، ولكنه عند الكثير من أهل الأدب وذوي الذوق البياني الخالص أديب الأمة العربية المسلمة، يعبر بلسانها وينطق عن نفسها، فما يعيب عليه عائب إلا من نقص في وسائله ، أو كدرة في طبعة، ولأن بينه وبين طبيعة النفس المسلمة التي ينطق الرافعي باسمها حجاباً يباعد بينه وبين ما يقرأ روحاً ومعناً)[2].

أماالجامع لكل تلك الأسباب التي مضت فيمكن وضعه في دائرة الغزو الفكري الموجه ضد العرب والمسلمين من خلال الإساءة إلى اللغة العربية التي هي سر نهضتهم، فلم يكن الغرب يعيش بمعزل عما كان يجري آنذاك في مصر وغيرها من بوادر النهضة الحاصلة على صعيد

---

(١) مجلة الوحدة الإسلامية / السنة الثانية / عدد٢١ / جمادى الثانية ١٤٢٤ هـ، آب ٢٠٠٣ م، تحت عنوان (مصطفى صادق الرافعي أديب إسلامي يجاهد دفاعاً عن العربية) الشيخ خليل حوراني.

(٢) تصدير سعيد العريان لوحي القلم: ١/٧.

الأدب بالذات ولم تغب عنهم تلك الهتافات التي كانت تنادي بإعادة مجد العرب ومجد الإسلام، والتي يأتي الأدب في مقدمة أسبابها.

ولقد أدرك الكاتب والروائي الشهير نجيب الكيلاني تلك القضية فراح يفسر حقيقة ما يجري ـــ وتحديدا عند ذكره للرافعي الأديب ـــ ليرده في النهاية إلى الغزو الفكري الموجه صوب أمتنا العربية، فيقول:

(لقد أدى الرافعي رسالة كبرى في معركته الفكرية الواسعة دفاعا عن اللغة وأصالتها ودفاعها عن الإسلام وقيمه الغالية وحضارته الخالدة، وقرر في معظم كتاباته أن الحل الإسلامي هو الحل الصحيح لمشاكلنا، لكن ما معنى مؤامرة الصمت التي تقف اليوم إزاء تراث الرافعي العريق، أهي جزء من المؤامرة الشاملة ضد الإسلام وأهله في هذا العصر ؟ أم هي مخلب من مخالب الغزو الفكري الذي يأبى إلا أن يطمس الحقائق النيرة الباهرة في تأريخنا الإسلامي المعاصر؟؟)[1].

من هنا رأينا تلك الحملة الفكرية الشعواء وهي تبعث في سهامها وتحرك طبولها لتقرع أسماع المستأجرين وقد وجدت لها أبواقاً كثيرة تنادي بصوتها وتتكلم بلغتها وتنقل أفكارها وتبث سمومها في قلب الأمة العربية، شعر بذلك أهل الأدب أم لم يشعروا المهم أن الأمر وقع فكانت المعركة بين أنصار الحداثة أو ما يسمى بالجديد من الأدب وبين الذين حافظوا على التراث القديم ودافعوا عنه ولم يرضوا لأحد أن يتخلى عنه ولا أن يقاطعه بل أبَوا إلا أن يبقى المَعين الصافي الذي يستمد الأديب منه أدبه؛ أدباً ناصعاً صافياً يقرؤه الناس ويفخروا به ويفيدوا منه ويحققوا نهضتهم التي لا تقوم إلا به، فهما **الركنان الخالدان** اللذان لا تقوم نهضة هذا الشرق العربي على أساس وطيد إلا بهما: **الدين الإسلامي واللغة العربية** وما عداهما فعسى ألا تكون له قيمة في حكم الزمن الذي لا يقطع بحكمه على شيء الا بشاهدين من المبدأ والنهاية، كما نص على ذلك الرافعي المتهم نفسه. [2] فكان ذلك الغزو الفكري سلاحاً من أعظم الأسلحة التي استخدمها أعداؤنا في الغرب ضدنا فأحدثت انهياراً واضحاً في مجتمعاتنا مضى ضمن مخطط جائر يرمي إلى إذابة اللغة العربية ومن بعدها القرآن العظيم من خلال إشاعة اللغة العامية والأساليب الدخيلة على المجتمع العربي بأسره بحجة التقدم الحضاري المزيف، فكان أن وقعت الواقعة بين أنصار ومؤيدي هذا الفكر وبين مصطفى صادق الرافعي، والحق أن ذلك التيار كان يمثل ضربة قاسية وموجعة أصابت الرافعي الذي استطاع أن يتصدى لها بجدارة وبقوة وأن يرد لهم تلك الضربة بضربة أقوى منها وأن يكيل لهم الصاع صاعين.

---

(١) انظر مجلة الأدب الإسلامي عدد ٤٣، ٤٤: ص١٤٤.

(٢) أنظر وحي القلم: ٣ / ١٥٣.

وأترك أخيراً الرافعي يرد على خصـــومه بكلمات فيها الإيجاز وفيها الحكمة رداً جامعاً مانعاً يُسكت اللبيب ويقنع الأديب فيقول: (أما هذا الذي يسمونه غموضاً وترقيقاً فما أنا بصاحبه ولا العامل ولكنه طورٌ من أطوار الزمن لا بد أن يسبق نهضة التجديد كما سبق من قبل، فقد كانوا يصفون به سيدي شعراء العرب أبا تمام والمتنبي حتى قالوا في أبي تمام إنه فسر الكلام وأحاله وعقده بتعمّله وصناعته وانه أتعب الناس حتى صار استخراج معانيه باباً منفرداً في الأدب ينسب إليه طائفة من العلماء) [١].

وأعجب من ذلك أن نراه يهاجم الغموض منتقدا الفلاسفة في كلامهم، وبعض الشعراء في استغلاقهم من الذين يمتهنون صناعة الألفاظ بهرجة وزينة إذ يقول:

(... فإن الحياة لا تستغلق في البلاغة بإنسان الا وهي غنية عنه، ولعل غموض بعض الفلاسفة وبعض الشعراء هو من دليل الطبيعة على أنهم زائدون في الطبيعة...

ألا ترى ان من أساليبهم الفلسفية والشعرية ما يجعل معنى الكلمة أحيانا هو نقص معناها، إذ يتصنعون للفكر ويستجلبون له ويشققون فيه كما يفعل أهل صناعة الألفاظ بالألفاظ، فها هنا البديع اللفظي، وهناك البديع الفكري، ولا طائل وراءهما الا صناعة وبهرجة) [٢].

وله في موضوع يرد فيه على من عاب أسلوبه (وربما عابوا السمو الأدبي بأنه قليل ولكن الخير كذلك، وبأنه مخالف، ولكن الحق كذلك وبأنه محيَّر، ولكن الحسن كذلك، وبأنه كثير التكاليف، ولكن الحرية كذلك، إن لم يكن البحر فلا تنتظر اللؤلؤ وإن لم يكن النجم فلا تنتظر الشعاع وإن لم تكن شجرة الورد فلا تنتظر الورد وإن لم يكن الكاتب البياني فلا تنتظر الأدب)[٣].

*** *** ***

ثانياً: شبهة الغزل

قالوا إن الرافعي شاعر الحسن والجمال [٤] وهو كذلك فقد سعى في أول أيامه الأدبية لان يكنى بشاعر الحسن، وقد حصل له ما أراد ثم استمر هذا النعت وعلق به حتى صار المغرضون يتخذون منه سبيلاً إلى التهمة والانتقاص منه والطعن في كتاباته التي غلب عليها طابع الدين والمحافظة على اللغة والتمسك بالتراث العربي الأصيل والوقوف ضد كل التيارات المناهضة للعربية والإسلام سواء تلك التي تنبعث من الداخل أم تلك التي صدرت من الخارج عن طريق

---

(١) مجلة المقتطف إبريل ١٩٢٥ : ، نقلاً عن الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد: ٤٦٥.

(٢) وحي القلم: ٣ / ١٥ – ١٦.

(٣) صدر كتاب وحي القلم: ١ / ٨.

(١) انظر حياة الرافعي: ٤٣.

متعهديها ممن رضـــعوا لبانة الفكر الغربي المعادي لكل صـــادق أمين يريد لبلده النهضـــة ولأمته الرفعة والتطور والوصول.

كل ذلك دفعهم إلى إثارة الشـــبهات عنه فكان منها **(شـــبهة الغزل)**، وكان مما ينال به من الرافعي رحمه الله، وها أنذا أوضـح كيف جرى ذلك؛ فمنذ أن ذاع صـيت الرافعي واشـتهرت على المحافل أشـــعاره ورســـائله وعلى الأخص منذ أن حصـــل اللقاء بينه وبين الأديبة اللبنانية **(مَيْ زيادة)** وتطور بعدها إلى علاقة أو قل معركة باردة في الهوى والحب كانت سبباً في إنشاء كتب **(حديث القمر، ورســـائل الأحزان، الســـحاب الأحمر، أوراق الورد)** وإن شـئت فقل باقي مؤلفات الرافعي الأخرى إلى أن مات – رحمه الله – منذ ذلك الحين وإلى يومنا هذا ونحن نعرف الرافعي الكاتب المحب فما يذكر الرافعي في سـطر من كتاب إلا وللآنسـة **مي** نصـيب في ذلك السـطر نفسه وليس من شيء يذكر سوى حبها له وحبه لها ولم يبق إلا أن يلقبوه بـــ **(مصطفى مي)** كما اشتهر ذكر كثير عزة، وجميل بثينة وقيس وليلى وغيرهم.

ولو أنا سـلمنا ورضـينا بوجود مثل هذا الشـيء فما الضـير أن يذكر الوجه الآخر للرافعي الكاتب البياني والمصـــلح الاجتماعي والأديب العبقري، أين هؤلاء من كتاب **(أعجاز القرآن والبلاغة النبوية)** وأين هم من كتابه **(تحت راية القرآن)** و **(وحي القلم)** لا بل إن ما ذكرته من الكتب الأربعة الخاصـــة بالحب والهوى بينه وبينها ما أن يقرأها قارئ حتى يعلم يقيناً بأنها ما للحب كتبت فحســب ولكن للأدب وللعلم وللفهم بل للدين، وكثير هم الذين يظنون خلوها من كل ذلك.

إن الحاجز الذي وضـعه المتهمون أمام هذه المؤلفات بعد أن شـوهوا الحقيقة والبسـوا الرافعي وكتبه لباس الســـوء والهوى والمرض كانت كارثة أحلت بالأمة _إلى حد ما_ابتعدت بعدها عن معينها الصـافي الذي أخرجه الرافعي لها في شـكل يواكب عصـرنا لا صـعب ولا سـهل عوان بين ذلك فافهموا ما تكتبون.

فإلى الذين حصـــروا الرافعي في دائرة الحب والهوى والغزل وإلى الذين لم يروا في أدب الرافعي سـوى تلك الكتابات الغرامية التي دارت بينه وبين مي _على حد قولهم_ والذين لم يعرفوا من كتب الرافعي التي ألفها سـوى الغزل ومشـتقاته إلى أولئك الذين نسـوا أو تناسـوا أدب الرافعي الخالد وتراثه الأصيل وكتاباته التي لا غنى لأحد عنها سواء من أهل الأدب والبيان أو غيرهم من عامة الناس.

إلى أولئك جميعاً أتلو هذه الشـهادات وتلك الأقوال ورأيي معها حاصـل كي أميز بين الغث والســـمين وافرق بين الحق والباطل وأظهر الحقيقة جلية ناصـــعة لمن يريد الحق ويســـعى إليه ويطمح إلى إيجاده والانتفاع به، وابدأ بالأســـتاذ **طاهر الطناحي** وهو يتحدث عن الرافعي حديث

العالِم الفقيه يظهر لنا حقيقة الحب عند الرافعي ويصـــرح بأن: (الرافعي وهو الشـــاعر المرهف الحس والأديب العاشق للجمال لم يتخذ الحب وسيلة إلى التسلية واللهو وخدمة الجسد بل كان عنده وسيلة للوحي الأدبي والإنتاج الفني، كما هو واضح من قوله: (ما أريد من الحب إلا الفن، فإن جاء من الهجر فن فهو الحب) وقال: (إن المرأة للشـــاعر كحواء لآدم تعطيه بحبها جديداً، وان النابغة في الأدب لا يتم تمامه إلا إذا أحب وعشق).

ومن أجل ذلك الوحي ومن أجل ذلك الفن، نظم ما نضـــم في الحب، وكتب ما كتب من رســائل الأحزان والســحاب الأحمر وأوراق الورد وحديث القمر وهي أول رســائل أدبية في اللغة العربية كتبت بهذا الأسلوب فلم يسبق لأديب عربي قبل الرافعي أن كتب على هذه الطريقة الجيدة التي أودع فيها فلســفة الحب وفلســفة الجمال وخلجات النفس وخواطر الوجدان في أســلوب فني خصب رفيع) [١].

ثم يســترســل الكلام عن حب الرافعي ونزاهته وكيف كان حباً عذرياً عفيفاً طاهراً ليقول إن الرافعي (حين ألف رسائل الأحزان والسحاب الأحمر وأوراق الورد وهو في كهولته من وحي أديبة نابغة وكاتبة جميلة بارعة لم يصـــرح باســـمها حفاظاً عليها من القيل والقال، لا كما كان يفعل الشعراء والأدباء والمحبون بل جعل حبه سراً في فمه وعاطفته إبداعاً في أدبه) [٢].

ولعل خير ما يشـــهد على طهارة ونقاء وصـــفاء الحب عند الرافعي هو ذكره الأغراض التي كان يرمي إليها من تأليفه كتاب " **أوراق الورد** " وهي:

١. سد المكان الخالي في الأدب العربي من أول تاريخه إلى اليوم، وإعطاء بالأخرى.
٢. وضع عمل حاسم يفصل في النزاع القائم بين القديم والجديد، لأنه نزاع كلامي إلى أن يضع أحد المذهبين عملا يعجز المذهب الآخر، ومن المستحيل على حد قول الرافعي، أن يوجد اليوم في العربية من يستطيع مثل هذا الكتاب بمثل هذه المعاني، وبمثل هذا الأسلوب.
٣. تطهير فكرة الحب، وتهذيب معانيه في نفوس الشبان والفتيات، والسمو بهذه الفكرة إلى الجهة الشعرية الروحانية التي تسمو بها النفس بدلا من أن تسقط، وهذا غرض تهذيبي عظيم.

---

(١) ساعات من حياتي طاهر الطناحي: ١٠٤.

(٢) المصدر نفسه: ١٠٥.

٤. الرد على الكتاب الأوربيين الذين يعيبون العربية بضعف التصوير للعواطف، وأنها ليست لغة تحليل، فأوراق الورد دفاع عظيم عن اللغة، كما أنه تجديد فيها وفي الأدب[١].

وقد تستغرب أكثر حين تسمع حوراني وهو يفسر لك حقيقة الغزل عند الرافعي وتأخذك الدهشة كذلك وأنت ترى نوعاً جديداً منه لم يألفه أهل العصر من الكتاب والقراء إذ يقول (وقد يكتب الرافعي عن الوجدانيات العاطفية في **(أوراق الورد)** و **(رسائل الأحزان)** فلا يخرج عن هدي الدين في شيء لأن الحديث عن العاطفة الشريفة يمت إلى القرآن بنسب أصيل وأنت حين تقرأ الغزل العفيف تحس بارتفاع في مشاعرك وسمو في اتجاهك وحاشاك مع هذا النمط الوافي في البيان أن تسفَّ إلى نزوة هابطة أو تطبع عاطفة رعناء والشعر الذي شغل به الرافعي ردحاً غير قليل من حياته كان شعر المروءة والعزة وينشد المجد والاستقلال وترجمان الطهارة والمروءة والشرف وذلك ما ينطق به قوله:

قلبي يحب وإنما أخلاقه فيه ودينه[٢]

وهكذا لم تكن المرأة عند الرافعي غاية دنيئة أو هدفاً يفنى في تحقيقه، لكن الرافعي عاش حياته وعنده من الأهداف السامية ما يتمنى كل إنسان أن يحوز شرف تحقيقها، عاش الرافعي للناس والمجتمع، لم يكن الرافعي ليرضى أن يعيش بمعزل عن الآخرين أو عمّا يدور حوله من تدهور يراه في شتى المجالات لاسيما الانحطاط والتدني الذي أصاب اللغة والأدب آنذاك والعربية التي باتت تحتضر ترجو من يعيد لها الحياة وهي ترقب الأمل يبزغ مع فجر الرافعي الطالع من بين كتبه وفي سماء خياله محاطاً بدينه وأدبه ممزوجاً بعبقريته وإلهامه في بداية إشراقة قلم ساحر تتجه صوبه النهضة المصرية والعربية ثم العالمية.

إن رجلاً كالرافعي يحمل هموم العالم ويرضى بالفاقة، ويصبر على المرض موظفاً بسيطاً في إحدى محاكم مصر يموت ولا يملك بيتاً يسكن فيه؛ رجل كهذا لا يطمع في لذة عابرة كهذه، مع أن الرافعي أحب وأخلص في حبه بعد أن عرف معنى الحب فأخلص له الحب فوهب له الفن ومزج بين الحب والفن حتى كان الحب عنده طريقاً أو وسيلة عظمى لفهم الجمال وإدراكه فهو القائل (الفن عندي في الحب أن يبدأ في المرأة ولكن لا ينتهي فيها فالمرأة طريقة لا غاية وهي وسيلة لفهم الجمال وإدراكه فيما هو أجمل منها، أي في الوجود نفسه بكل ما فيه، كأنه الخلود

---

(١) رسائل الرافعي: ١٩٤ – ١٩٥ .

(٢) مصطفى صادق الرافعي أديب إسلامي يجاهد دفاعا عن العربية. خليل حوراني، مجلة الوحدة الاسلامية، عدد ٢١ /٢٠٠٢

الروحي في الإنســـان يحاول الحب ان يحس معانيه الســـامية الخالدة – وهو بعد في هذه المادة الفانية المتغيرة)[١].

ويشهد على ذلك الوصف وذاك النقاء المنغمس في الفن الكلامي ما كتبه الرافعي في جميع ما ألف وأبدع (فقد كان الرافعي عاشـــقاً من طراز جديد يضـــع كرامته إلى جانب قلبه لا يفترق أحدهما عن الآخر، فلا غرو إذن أن يُخلِف لنا شعراً غزلياً عذباً رائقاً يفيض بالرقة والنقاء)[٢].

وأترك الكلام لحضرة الأديب المحب يكشف النقاب ويميط اللثام عما جهله المشكّكون وأخطأ فهمه الباحثون والدارسون كي نسمع منه الكلام الفصل في الحب ومعناه وماذا كان يعني عنده إذ يقول (من الحب رحمة مهداة فإذا كنت مع الله كانت كل أفكارك **صـــوراً روحانية** فأنت كالملك: هو في الأرض ما هو في السماء، ومن الحب نقمة مسلطة فإذا كنت مع الشيطان كانت أفكارك صـــوراً حيوانية فأنت كهذا المتهجم الطيّاش الذي لو نظر في كل مرائي الدنيا ما رأى في جميعها غير وجه القرد لأنه القرد ... !

والناس في هذا الحب أصـــناف: فواحد يجاهد زلاّت قد وقعت وهو الحب الآثم وآخر يجاهد شـــهوات تهم أن تقع وهو الحب الممتحن وثالث أمِنَ هذه وهذه وإنما يجاهد خطرات الفكر وهو الحب ليحب فقط، ورابع كالقرابة والصـــديق عجز الناس أن يجدوا مني لغاتهم لفظاً يلبس هذه العاطفة فيهم فألحقوها بأدنى الأشـــياء إليها في هذا المعنى وهو الحب وعلى الثالث وحده بنيت (رسائل الأحزان) وعلى بعض الرأي في الباقيات كسرت هذا الكتاب) [٣].

*** *** ***

ثالثاً: شبهة النقد اللاذع

لا أريد في ذكر هذه الشبهة أن أقف إلى جانب الرافعي وهو يسلط لسانه على خصومه يهز به عروشـهم ويفضـح أفكارهم وآدابهم ويسـخر منهم بالطريقة التي قل أن نجد لها مثيلاً في أدبنا الحديث، فلســت أحاول إيجاد المســوغات التي دعت الرافعي واضــطرته للكتابة بهذا الأســلوب الشنيع، فأني أقرُّ وأعترف أن الرافعي – رحمه الله – كان قاسياً كل القسوة في رده على الدكتور طه حسين في كتابه (تحت راية القرآن) وأقسى منه في رده على العقاد في كتابه (على السفود) – وهما أشـــهر أديبين كانا قد تعرضـــا لنقد الرافعي المقذع، علماً أن هناك معارك أخرى كان قد خاضـها الرافعي مع زكي مبارك وسـلامة موسـى وعبد الله عفيفي، لسـت أذكرها مكتفياً بمعركتي **(حسين والعقاد)** – لكني مع إقراري بما قلت وأنه مما لا يليق بأديب مثل الرافعي وأدبه فعل ذلك،

---

(١) وحي القلم : ٥١/١ نقلاً عن الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد .

(٢) مصطفى صادق الرافعي، كاتباً عربياً ومفكراً إسلاميا: ٢٦ .

(٣) رسائل الأحزان: ٥

إلا أن وجه الاعتراض على هذه الشبهة هو إلصاق هذه التهمة بالرافعي وأدبه إلصاقاً أخذ أكبر من حجمه وتعميمها في أحايين كثيرة على سائر أدبه السامي كما حصل في ما ذكرت من شبهتي الغموض والغزل حتى صارت صفة يعرف بها الرافعي وتُذكر إذا ذُكر، وأكثر من ذلك إذا حضر معه الدكتور طه حسين وكذا العقاد حتى حصروه في النهاية ضمن دائرة المعارك الأدبية التي حدثت آنذاك وشاعت ودوى صداها في مصر على نطاق النقد الحديث.

ولعلي إزاء ما تقدم التزم الحيادية إلى حد ما وأنا أقف أمام هذه الشبهة التي قد لا أستطيع أن أجد لنفسي فيها رأياً قاطعاً وقولاً فصلاً لذا سأترك المقام **أولاً** لتلميذه البار محمد سعيد العريان يتحدث لنا عما سماه بالحديث الشائك فيقول عن أستاذه الرافعي: (لقد كان ناقداً عنيفاً حديد اللسان، لا يعرف المداراة ولا يصطنع الأدب في نضال خصومه، وكانت فيه غيرة واعتداد بالنفس؛ وكان فيه حرص على اللغة (من جهة الحرص على الدين، إذ لا يزال منهما شيء قائم كالأساس والبناء: لا منفعة فيهما معاً إلا بقيامهما معاً).. فكان بذلك كله ناقداً عنيفاً يهاجم خصومه على طريقة عنترة: يضرب الجبان ضربة ينخلع لها قلب الشجاع ! أقرأ له في أول كتاب المعركة: (... إنما نعمل على إسقاط فكرة خطرة، إذا هي قامت اليوم بفلان الذي نعرفه، فقد تكون غداً فيمن لا نعرفه، ونحن نرد على هذا وعلى هذا برد سواء، لا جهلُنا من نجهله يلطف منه، ولا معرفتنا من نعرفه تبالغ فيه ... فإن كان في أسلوبنا من الشدة أو العنف أو القول المؤلم أو التهكم، فما ذلك أردنا؛ ولكن كالذي يصف الرجل الضال ليمنع المهتدي أن يضل، فما به زجر الأول بكل عظة الثاني ...)[1].

وعن كتابه **(على السفّود)** وما حواه من النقد الجارح في حق العقاد أترك المقام **ثانياً** للأستاذ حسن السماحي سويدان يناقش أسلوب الرافعي هذا في المقدمة التي قدّم بها الكتاب إذ يقول: (والكتاب على الرغم مما فيه من قسوة بالغة وعبارات قاسية في حق العقاد، فان فيه تذوقاً رفيعاً لأسرار العربية وأساليبها البيانية ووقفات بديعة حول صناعة الشعر ونقده ومعرفة غثّه من سمينه كيف لا، والكاتب شاعر متمكن من أدواته ؟! وقديماً قالوا: القزاز يعرف ما لا يعرفه البزاز.

وكما أن العبارات القاسية التي كتبت عن أبي تمام والبحتري والمتنبي لم تمنع القّراء من قراءتها والاستفادة مما فيها من آراء صائبة ونظرات ثاقبة لولاها ما تقدم النقد الأدبي خطوة واحدة فكذلك لا ينبغي أن نهمل كتاب الرافعي هذا لأن فيه عبارات وكلمات جارحة في حق الأستاذ العقاد فان فيه أيضاً من الآراء النقدية ما هو جدير بالنشر والذيوع.

---

(١) حياة الرافعي: ١٤٨ وانظر: تحت راية القرآن: ٥ في التنبيه .

وبما أن تلك الكتب لم تحط من قدر أبي تمام والبحتري والمتنبي بل بقيت مكانتهم هي هي على عرض الشـعر فكذلك بقي العقاد هو هو كما عرفه أهل عصـره لم ينل (على السـفود) من مكانته الحقيقة لأنه – في النهاية – لا يصح إلا الصحيح.

إن هذا الأسـلوب من النقد الهجائي عرفه أيضـاً النصـف الأول من القرن العشـرين وكتبت فيه كتب كثيرة منها كتاب العقاد (قمبيز في الميزان) حين صـب العقاد جام غضـبه على أمير الشعراء أحمد شوقي وشعره وجرده من كل فضيلة وكذلك، كتب الدكتور زكي مبارك يشنع على أحمد أمين في صفحات مجلة (الرسالة) من خلال مقالاته (جناية أحمد أمين على الأدب العربي) التي جمعت في كتاب كبير.

ولو أردنا أن نهمل كل كتاب وردت فيه عبارات جارحة بحق إنسـان عزيز علينا كالأسـتاذ العقاد – رحمه الله – أو غيره، لأسقطنا بذلك نصف الشعر العربي لأنه قيل في الهجاء ولأسقطنا نصف المكتبة العربية لأنه ما من كتاب إلا ونجد فيه بعض العبارات القاسية في حق عالم خالف المؤلف في رأيه وعقيدته.

إذن علينا العمل بالقاعدة الذهبية التي نقول:

خـذ مـن زمـانـي مـا صـفـا ودع الـذي فـيـه الـكـدر

ومنذ خلق الإنسان عرف الحب والكراهية والصداقة والعداوة ومع العداوة نشأ الهجاء وتفنن الناس فيه وعده النقاد أقوى الأنواع الشـعرية لأنه صـادق التعبير عن نفسـية قائله ومشـاعره، فالإنسان قد ينافق في المدح والرثاء ولكن لا يتصور أن يناقض في الهجاء.

فالمتنبي مدح كافوراً ولم يصدق أحد هذا المدح ثم هجاه فكان صادقاً في كل كلمة منه.

وللناس ولع بالإطلاع على عثرات الآخرين وتتبع عوراتهم ومثالبهم، ولا شـيء يكشـف لهم ذلك كالهجاء، ومن هنا كانت قصـائد الهجاء أكثر سـيرورة على الألسـنة من غيرها،ألا ترى أن أهاجي كافور حفظها الناس ومدائحه بقيت حبيسة الكتب ؟!.

وكتاب (على السفود) فيه من الجدة والعلم والأصالة ما يستحق إعادة نشره والإغضاء عما فيه مما لا يرضـي أذواق الناس وارغب إلى الأخوة الأعزاء من محبّي العقاد – وأنا منهم– أن يستبدلوا باسم العقاد زيداً من الناس كلما مر بهم اسم العقاد، ولولا الأمانة العلمية لفعلت ذلك، أو أن يحملوا ما فيه على الهزل والدعابة)[1].

(١) على السفود / المقدمة / حسن السماحي سويدان: ٦ – ٨.

وبودي قبل أن أختم أن أقف على التقويم الذي انتهى إليه الدكتور الطاهر مكي بعد الدراسة التي قدم بها كتاب على السفود (يؤكد أنَّ الكتابَ نموذجٌ في النقد، يدلُّ على نفاذ الفكرة، ودقةِ النظرة، وسعة الإحاطة، وقوة البصر بالعربية وأساليبها، أما الأسلوب الذي حمل إلينا هذا كله فتختلف فيه الآراء أيما اختلاف، بعضهم يرى أن هذا كله يمكن الوصول إليه في غير هجوِ القول وفحش اللفظ ومر الهجاء، وآخرون يرون أنَّ الزمن يذهب بهذه الهوامش ويبقى الجوهر من هذه المقالاتِ لا يبليه الزمن، خاصةً مع غيرِ المعاصرين وهم بطبيعتهم على الحيادِ بين هذا وذاك.

ويضيف د. الطاهر مكي: أنَّ هناك فرقةً ثالثةً– د. الطاهر منها -ترى أنَّ هناك طائفةً من الأدباءِ لا يمكن مناقشتها إلا بمثلِ أسلوب السفود) [1].

يبقى أن أقول إنه لا ينبغي لأديب مثل الرافعي يشهد له ما ذكرنا من النصاعة والبياض في سيرته وأدبه أن يحدث ما يشينه ويكون سبباً في قدحه ولو استطعت أن أخاطب الرافعي اليوم لقلت له:

احفظ لشيبك من عيب يدنسه إن البياض قليل الحمل للدنس

*** *** ***

رابعاً: شبهة المرض والفقر

شاءت حكمة الله أن يبتلى الرافعي بفتنتي المرض والفقر، أما المرض فقد أصيب بصمم وهو في العاشرة من عمرة ظل يلازمه حتى مات كما أنه كان يعاني أمراضاً أخرى تعاوده بين الحينة والأخرى لا يكاد يشفى منها كالزكام والصداع المستمر وأمراض المعدة وغيرها من الأمراض الأخرى.

وأما الفقر فقد ظل يصارعه منذ أن نشأ إلى أن أدركه الموت وهو لا يملك بيتاً يسكنه وكثيراً ما كان يحار في طباعة ما يكتب اذ لا يملك من النفقات ما يستطيع به أن يخرج نتاجه الأدبي كي يقرأه الناس.

وما يدرينا فرب ضارة نافعة ولعل المرض والفقر كانا سبباً رئيسياً في حصول الإبداع عنده ولولاهما لما عرفنا الرافعي الكاتب والعبقري والنابغة والإمام والأديب الملهم، ولست أقول هذا دفاعاً عن الرافعي وانتصاراً له ضد معارضيه وخصوصاً من أهل الأدب ولاسيما الأستاذة نعمات فؤاد أحمد التي (درست حالات المرض التي شكت منها رسائل الرافعي لتزعم من ثم أن أدب

(١) مقدمة لكتاب على السفود ، د. الطاهر أحمد مكي ، نقلا عن مقالة بعنوان: على السفود قراءة جديدة في معركة قديمة.

الرافعي مما يجب طرحه من المكتبة العربية لأنه صـــادر عن إنســـان عاش مريضـــاً غير معافى...)[1] ولكني أعتقد جازما بأن في نتاجنا الأدبي والفكري ما يؤيد ما قلته من أن المرض والفقر قد يكونان سبباً في التفوق والإبداع.

وثمة سؤال أوجهه إلى من يطلق مثل تلك الاتهامات غير المنطقية: هل كان بالإمكان ان يوجد كتاب مثل كتاب (المســـاكين) الذي ألفه الرافعي لولا أن صـــاحبه –رحمه الله – كان قد خاض غمار المسكنة وذاق مرارتها وقاسى في سبيل معالجتها والصبر على قساوتها عمره كلّه ؟!.

وبعد فتلك مجمل الشبهات التي أثيرت عن شخص الرافعي وأدبه عرضتها عرضاً يناسب المقام ويفهمه أولو الشأن من الأنام ناقشته مناقشة الباحث الذي لم يكن يوما عبدا لشخص من الشخوص وإنما هو الفكر والأدب لا شيء سواهما....

رددت ما اســـتطعت ردّه لصـــاحب الحق وللحقيقة بما توافر لي من أدوات البحث والنقد والتحليل ومن ثم الموازنة فالحكم. بذلت في ذلك غاية علمي المحدود. **وفوق كل ذي علم عليم.**

---

(١) انظر: في ذيول المشاكسات/ مجلة كلية الآداب/جامعة بغداد ١٩٧٨ بحث للأستاذ مصطفى نعمان البدري

المبحث الثاني
منتقى الإشادات

المبحث الثاني

منتقى الإشادات

*** *** ***

أقوال وشهادات واعترافات أوردها تكملة للرد على الشبهات وسعياً مني لمواصلة الذب والذود عن حياض ذلك القلم الذي أوحي إليه العلم فكتب والهم الفكر ولا عجب فنبغ واستحق العبقرية من غير مصلحة له ولا طلب.

ولعلي أبدأ تلك الأقوال بالشهادات العظمى التي صرّح بها الإمام اللغوي صاحب مجلة الضياء **إبراهيم اليازجي** بعد إصدار الرافعي ديوانه الشعري الأول يقول فيها: (إن الناظم كما بلغنا لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره ولا ريب أن من أدرك هذه المنزلة في مثل هذا السن سيكون من الأفراد المجلين في هذا العصر وممن سيحلون جيد البلاغة بقلائد النظم والنثر) [١]. وفي معرض حديثه عن الديوان قال اليازجي (... وقد صدره الناظم بمقدمة طويلة في تعريف الشعر، ذهب فيها مذهباً عزيزاً في البلاغة وتبسّط ما شاء في وصف الشعر وتقسيمه وبيان مزيَّته، في كلام تضمن من فنون المجاز وضروب الخيال ما إذا تدبرته وجدته هو الشعر بعينه...)[٢].

أما كتابه **(إعجاز القرآن والبلاغة النبوية)** فقد شغل به الخصوص والعموم وجاءت اشاداتهم بهذا الكتاب تتوالى الواحدة أثر الأخرى في وقته وإلى الآن فمن أولئك الصاديون:

محمد رشيد رضا الذي قال فيما قال: (استوى إلى هذا وانتدب له الأديب الأروع، والشاعر الناثر المبدع، صاحب الذوق الرقيق والفهم الدقيق، والغواص على جواهر المعاني الضارب على أوتار مثالثها والمثاني، صديقنا الأستاذ (مصطفى صادق الرافعي) فصنف في المجاز القرآني سفراً لا كالأسفار، أتى فيه – وهو الأخير زمانه – بما لم تأتِ به الأوائل، فكان مصداقاً للمثل السائر كم ترك الأول للآخر ...)[٣].

ومنهم **صادق عنبر** – رحمه الله – الذي كتب مقالاً في جريدة الأهرام يخاطب فيه الرافعي فيقول:

(إلى صديقي نابغة البيان الأستاذ السيد مصطفى صادق الرافعي لا أراني أنصفك إذا أثنيت عليك بكلمي، ولو أحفيت قلمي، فوالذي جعل الورد لا ينبت إلا في أغصانه وخلف البلبل وخصه بألحانه وجانس بين الأشجار في المنبت ونوع في الأشجار والثمر، والحشر النجوم في سماء الليل وأفرد بجهال الليل القمر، انك من البلاغة بحيث لا يصفك كما أنت إلا قلمك أنت، وما أجد

---

(١) أعلام الأدب والفن، أدهم الجندي: ٢ / ٤١٧.

(٢) على السفود (التصدير): ١٢.

(٣) إعجاز القرآن ، الرافعي/ عرض الكتاب: ٢٠.

في الثناء على كتابك اقل من أن أقول لك أعجزت، إذا لم أجد لغيرك أكثر من أقول له أحسنت، فهذه يا سيدي كتابة أم سحر بالكتابة ؟ ومعان تنقدح من فكرك أم برق يتتابع من سحابه ؟ وهل وضعت كتابك في الأعجاز ؟ أم للإعجاز ؟ لتري الناس حقيقة لم يكونوا يعرفونها إلا في المجاز ؟ ولقد جئت بكتاب يقاس عليه في البلاغة، اما هو فجلّ عن القياس فمن يعب عليك من بعد فما أطول هم فصوص الملح بفص الماس.

حيا الله ذلك القلم الذي أقام به الأدب مجده، ولا زال في آيات البلاغة كالآية التي تجب عندها السجدة) [١].

ومنهم **سعد زغلول** الذي ما ان أتم الرافعي نشر كتابه هذا حتى كتب إليه مخاطباً يقول:-

(حضرة المحترم الفاضل الأستاذ مصطفى صادق الرافعي تحدى القرآن أهل البيان في عبارات قارعة محرجة ولهجة واخزة مرغمة، أن يأتوا بمثله أو سورة منه فما فعلوا ولو قدروا ما تأخروا لشدة حرصهم على تكذيبه ومعارضته بكل ما ملكت أيمانهم واتسع له إمكانهم.

هذا العجز الوضيع بعد ذاك التحدي الصارخ هو أثر تلك القدرة الفائقة، وهذا السكوت الذليل عند ذلك الاستفزاز الشامخ هو أثر ذلك الكلام العزيز.

ولكن قوماً أنكروا هذه البداهة وحالوا سترها فجاء كتابكم **(إعجاز القرآن)** مصدقاً لآياتها مكذباً لإنكارهم وأيد بلاغة القرآن وإعجازه بأدلة مشتقة من أسرارها في بيان يستمد من رحمها **بيان** كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم.

فلكم على الاجتهاد في وضعه والعناية بطبعه شكر المؤمنين وأجر العاملين والاحترام الفائق) [٢].

وسوى الكلام عن كتاب **(إعجاز القرآن)** للرافعي كلام كثير توزع على شخصه وقلمه وكتبه وفنه العظيم ولعلي أذكر ما أجده دون النظر إلى أسبقية في القول أو خصوصية لشيء دون أخر فالمهم عندي توفر المدح والثناء واستقصاء الإشادة التي تظهر الحقيقة التي غابت عنا وعن كثير من أهل الأدب والقرّاء العاديين، ومن الجميع اليوم أرجو أن يسمعوا تلك الأقوال وهذه الأخرى ومنها الإشادة التي حظي بها الرافعي من لدن الإمام الشيخ **(محمد عبده)** ومفادها:-

(ولدنا الأديب الفاضل مصطفى أفندي صادق الرافعي زاده الله أدباً: لله ما أثمر أدبك ولله ما أضمن قلبك لا أقارضك ثناء بثناء فليس ذلك شأن الإباء مع الأبناء أعدّك من خلّص الأولياء،

---

(١) رسائل الرافعي ، الرافعي/ الهامش: ١٣١ .

(٢) على السفود / الرافعي : ١٤-١٥.

وأقدم صفك على صف الأقرباء، واسأل الله أن يجعل للحق على لسانك سيفاً يمحق الباطل وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل والسلام)[١].

أما **مصطفى كامل باشا** زعيم مصر فقد كتب إليه يقول:-

(سيأتي يوم إذا ذكر فيه الرافعي قال الناس:- هو الحكمة العالية مصوغة في أجمل قالب من **البيان)** [٢].

وعن كتاب **(تأريخ آداب العرب)** تحدث الأستاذ أحمد لطفي السيد حديث المعجب المحبّذ وعدّ كتاب الرافعي هذا فتحاً جديداً في بابه[٣].

كما أشاد الأستاذ أحمد زكي شيخ العروبة بالكتاب نفسه في مجلس علمي بإدارة الجامعة المصرية وقال: **إنه فتح جديد**[٤].

وبعد أن أصدر الرافعي مؤلفه **(كتاب المساكين)** قال أيضا: (لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنكليز شكسبير، وغوته كما للألمان غوته وهيجو كما للفرنسيين هيجو)[٥].

أما الأمير **شكيب أرسلان** فقد أفرد له مقالاً رناناً في صدر المؤيد فيه (... انه لو جاز أن يعكف على كتاب في نواشئ الأسحار بعد كتاب الله لكان كتاب تأريخ الأدب العربي)[٦] ثم خلع الأمير شكيب على الرافعي لقب إمام الأدب وحجة العرب [٧].

وقد رثى أرسلان صديقه الرافعي بقصيدة وصفها الكاتب حسن السماحي سويدان بأن كل بيت فيها قصيدة تترنّم، وكل كلمة تأريخ يتكلم، قال – رحمه الله – [٨]

ان الذي قد ضم جسمك للثرى ... قد ضم فيه العبقري الأكبرا

كان ابن بحرِ [٩] واحداً ففضلته ... بأوائل كانوا جميعاً أبحرا

(الرافعيين) الأولى فرعُوا العلى ... وتدبروا في كل فنّ عبقرا[١٠]

---

(١)على السفود / الرافعي: ١٢.

(٢) المصدر نفسه / الرافعي: ١٣.

(٣) ينظر: مصطفى صادق الرافعي أديب إسلامي يجاهد دفاعاً عن العربية، : ٢٢.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٢٢.

(٥) من أعلام الأدب والفن: ٢ / ٤١٧

(٦) المصدر نفسه: ٤١٧.

(٧) ينظر: المصدر نفسه: ٤١٧.

(٨) بدائع الحكم من وحي القلم: ٢٢ – ٣٠.

(٩) يعني الجاحظ.

(١٠) الكامل في كل شيء.

من مثل نادرة الزمان (المصطفى) سلطان من وشى الطروس وحبرا؟

الا تكن قد أنجبت إلا (أبا سامِ) [1] كفاها أن تسود وتظهرا

قد كان في جيش البيان مكانة ما كان يوماً (تبعٌ) في حميرا

ما أن رأى العصر الحديث نظيره فحلاً يباري الأولين ولن يرى

قل للمحاول أن يرى انداده: أقصرْ (فكل الصيد في جوف الفَرى)[2]

ملأ الزمان بدائعاً وروائعاً بقريحة تحكي الغمام الممطرا

تلك القريحة تمترى أخلافها [3] أبداً وليس يغيضها [4] ما يمترى

تدع الخيال لدى العيون مجسماً مهما توارى شخصه وتنكرا

وترى المعاني كالشياه مقادةً بَيْنا تكون من الجآذر[5] انفرا

أما خصوم الرافعي وممن كانت لهم معارك أدبية طاحنة معه فقد أبى بيان الرافعي إلا أن يرغمهم على قول الحق، فقد كتب الأستاذ **عباس محمود العقاد** عن أسلوب الرافعي قائلا: (وانه ليتفق لهذا الكاتب من **أساليب البيان** ما لم يتفق مثله لكاتب من كتاب العربية في صدر أيامها)[6].

ويقول أيضا: (إني كتبت عنه ـ أي عن الرافعي ـ أن له أسلوباً جزلاً، وأن له من بلاغة الإنشاء ما يسلكه في الطبقة الأولى من كتاب العربية المنشئين).

أما الدكتور **طه حسين** فهو الآخر لم يجد بدّ من الاعتراف ببيان الرافعي حين قال: (وكذلك تظلم الأستاذ الرافعي إن قلت إن حظه من العلم باللغة العربية وآدابها وبدقائقها وأسرارها، قليل وإنما الحق أن الذين يعلمون هذه اللغة . كما يعلمها الأستاذ الرافعي . قليلون جداً, وأحسبهم يحصون أيضاً)[7].

أما خصم الرافعي الثالث وهو الأديب **محمد عبد القادر المازني** فقد كتب عنه غداة وفاته فقال: " لقد كان يوصف في حياته بأنه حجة العرب، وهذا صحيح وغير قليل من أدب الرافعي

---

(١) كنية الرافعي، و سامي الذي تكنى به هو محمود سامي الباوردي.

(٢) الفرى: حمار الوحش، وهو مثل يضرب للرجل الكامل.

(٣) الضروع.

(٤) ينقصها.

(٥) جمع جؤذر، ولد البقر الوحشية، أي المعاني العصية تنقاد له وتسلس.

(٢) من أعلام الأدب والفن: ٣ / ٤١٧.

(١) انظر: مصطفى صادق الرافعي رائد الرمزية العربية المطلة على السوريالية: ٤٩.

سيبقى على الأيام، ما بقي للأدب ذكر ومقام.. وأحسبني لا أبالغ حين أقول إن له من آثاره ما لا يرقى إليه قلم في القديم أو الحديث، وإن له صفحات عديدة في كل كتاب له، يبلغ فيها ذروة البلاغة.. وقد كان رأيي فيه دائماً، أنه أعلم أهل العربية، وأوسع أدبائها اطلاعاً على علوم الدين.." (١)

فهؤلاء هم خصوم الرافعي يشهدون بما سمعنا فماذا يقول أصدقائه ومحبوه.

ولقد قيل: **والفضل ما شهدت به الأعداء.**

وعن كتب ((رسائل الأحزان) و (السحاب الأحمر) و(أوراق الورد)) يصرح الأستاذ طاهر الطناحي وهو يتحدث عن الرافعي بأن هذه الكتب الثلاثة (أول رسائل أدبية في اللغة العربية كتبت بهذا الأسلوب، فلم يسبق لأديب عربي قبل الرافعي أن يكتب على هذه الطريقة الجديدة التي أودع فيها فلسفة الحب وفلسفة الجمال وخلجات النفس وخواطر الوجدان في أسلوب فني خصب رفيع) (٢).

ويختم الطناحي حديثه عن الرافعي مترحماً على روحه الطاهرة (فقد كان أديباً نابغاً وكاتباً عربياً كبيراً وكان له في شعره ونثره دعابات لطيفة ونفثات ظريفة وكان ذا طبيعة فنية ممتازة وموهبة روحية بارزة رفعت ذكره وسجلت أسمه في سجل النوابغ الخالدين)(٣).

وقال عنه رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية العلامة الأستاذ **أبو الحسن علي الحسني الندوي** – رحمه الله – (انه أديب راسخ لا يزل ولا ينحرف وصيرفي حاذق كأن كلماته دنانير مصقولة يلفظ الدر وينفث السحر وإذا حكى حادثه قديمة أو بنى على أساس رواية تاريخية أو جملة فكأنما رد التأريخ على أعقابه أو قلّد ابن المقفع أو تنكر به فكأنما أبرز نسخة خطية لكتاب ... كليلة ودمنة..)(٤)

وفي كتاب له تضمن دراسة عن كل من – الدكتور طه حسين والأستاذ العقاد والرافعي وأبي القاسم الشابي – يعرب **الدكتور عبد العزيز المقالح** عن كبير إعجابه وعظيم دهشته بشاعرية الرافعي وتفوقه في ذلك على خصومه الذين ذكرت، بعد أن خص له المجال الأوسع في الكتاب وعدّ كتاباته النثرية عاملا مساعدا في ما سمّاه التغيير والتمهيد للثورة الشعرية الراهنة وذلك في قوله: (إن فهم الرافعي للشعر الحديث يفوق فهم طه حسين له، وان ممارسته للشعر تفوق ممارسة العقاد الذي ظل ستين عاما ينظم الكلام ويوزنه ويقفيه دون أن يكتب قصيدة واحدة تنتمي إلى

---

(١) المصدر نفسه: ٤٩.

(٢) ساعات من حياتي: ١٠٤.

(٣) المصدر نفسه: ١٠٦.

(٤) مختارات من أدب العرب: ١٥١.

الشعر. وهذا كله يؤكد – في النهاية – أن الرافعي أديب عظيم من هذا العصر، وأن كتاباته النثرية ذات الطابع الشعري قد ساعدت إلى التغيير، والتمهيد للثورة الشعرية الراهنة) [١].

أما الأستاذ الشيخ **علي الطنطاوي**_رحمه الله_ فقد أشاد بالرافعي من خلال نعته بسمة الاستعارة التي اشتهر بها أسلوبه وذلك عند حديثه عن آثار الدكتور طه حسين يذمها فيقول:(ليس له صناعة الزيات ولا استعارة الرافعي ولا سلاسة المازني ولا طبع أحمد أمين ولا فكر العقاد ولا فتنة الجمال في أسلوب زكي مبارك ...)[٢].

وللأستاذ **علي السماحي سويدان** وقفات كثيرة وإشادات حارة عظيمة يرويها لنا قلمه في تصديره لكتاب الرافعي (على السفّود) أبدأ معه تلك الوقفات وهو يصف لنا فصول الكتاب فيقول إنها (لا تبلغ أن تكون مقالات من الطراز الذي يجوّده الرافعي ويحشد له من المادة ومن وجوه الرأي ومن صنعة **البيان** ما يكاد كل مقال به كتاباً على حياله إذا أنت فصلت مجمله وفرّعت على أصوله وبينته بالشواهد والأمثلة رجع كتاباً مستجمعاً لعناصره مستوفياً بالكلية لاسم الكتاب)[٣].

وقال عنه في موضع آخر: (الرافعي أديب عبقري في الطبقة الأولى من أدباء العالم العظام كان شديد الوعي بما تهيأ له في أدبه بالقياس إلى آداب العربية وإلى المصطفى من آداب العالم لا يرتاب فيه ولا يتردد)[٤].

وعن بداعة الرافعي في نقد الشعر وولوجه أصعب أبواب النقد يعبر عن ذلك النجار بالقول: (... والذي قدر عليه الرافعي في هذا الباب خاصة – في عامة ما تكلم عليه في هذا الباب وفي غيره – لم يقدر عليه من أهل عصره أحد ولا اقترب منه إلا ما كان من العلامة الكبير محمود محمد شاكر في أخريات حياة الرافعي وبعد وفاته، وهو عبقرية فنية أخرى بالمعنى الكامل للكلمة كما يعرفه العارفون بآثاره)[٥].

وتحت عنوان **(الإمامة)** يورد لنا **الدكتور مصطفى نعمان البدري** في كتابه (الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد) أقوالاً لمعاصري الرافعي يؤكد فيها استحقاق الرافعي لقب الإمام بجدارة وذلك في قوله (إن إمامة الرافعي للأدب العربي قد أقرّها معاصروه بشكل ما وكان اسبقهم إلى بيعته بها الأمير شكيب أرسلان مذ يوم أرسل إليه وخاطبه ومنذ عرف بكتابه الجليل (تأريخ آداب العرب) حتى المعركة الاعتقادية التي ظاهره فيها وخاطبه بمثلها أمير شعراء العربية أحمد شوقي

---

(٣) عمالقة عند مطلع القرن: ١٩٢ .

(٢) روائع الطنطاوي، إبراهيم مضواح الألمعي، دار المنارة ط١، ٢٠٠٠ م: ٩٧.

(٣) على السفود / التصدير: ٣١.

(٤) المصدر نفسه: ٣٧.

(٥) على السفود / التصدير: ٥٨ – ٥٩ .

– على ما كان بينهما من منافسة –، وقد عده إبراهيم عبد القادر المازني أعلم أهل العربية بتاريخها وفنون آدابها كما عده عباس العقاد من أفذاذ أدباء العرب واعترف له طه حسين بالفطنة ونظر إليه (من بعيد) إنصافاً يذكره بالحسنى في بحثه عن كلمة (أدب) وأطوارها وكيف كان يقرأ ويفهم ولا يأخذ أو ينفك إلا ما يحتاج إليه واقر بها مخالفاً أيضاً وكذلك أرخ له الأستاذ عمر الدسوقي في الأدب الحديث وأشار إلى هذه الإمامة إذ قال: (كان الرافعي ذا مذهب في الأسلوب له أتباع ومعجبون ومعظم أتباعه من هؤلاء الذين يرون برأيه في الحياة المعاصرة ويقيسونها بمقياس المثل العربية)[1].

وبعد مناقشة طويلة يجريها الدكتور البدري بينه وبين الرافعي ومجموعة من الأدباء والنقاد يعطي البدري بيانه الختامي يفصح فيه عن رأيه الخاص بالرافعي قائلاً:– (وقد أوتي الحكمة والفضل، وتقدم بالتعبير والإنشاء خطوات مشهودة، ومكّن للتأليف بمنهاج عرض له في محصلة من ضم المذاهب والأفكار والتقائها، واتخذ النقد وسيلة للإتيان على الجوانب الضعيفة من الفكر والأدب وإقامة المعادلة من أمرهما، وآتى الأدب فقهاً ونماء، وعرف بالعربية أهليها، ومكن لها من الثبات أمام زحوف اللغات والفسولات واتخذ الذوق حجة، والأسلوب تمكناً والفكر ميداناً تجول فيه المعارف والصفات.

وكان قد اجتمع له من العلم والبصر بالعربية وآدابها وفتن الجمال في **بيانها**، ومن المعارف والثقافات ما أشرق به عليها في عصر وقفت فيه على مفترق خطير ! فكان الأديب الذواقة بحق، والمنشيء المكين بصدق، والمؤلف الثبت باقتدار والناقد القويم، والإمام الذي تجتمع فيه الرجولة والضمير والدم الكريم ، ويمضي به الحب والجهاد والإخلاص، ويهيم فيه السمو والجلال والشهادة.

وما كان كذلك فحسب، وإنما كان العربي المؤمن الذي تمثلت فيه سيرته وأدبه حقيقة العصر الذي عاش)[2].

ومن بدائع ما قيل في الرافعي إثر إصدار ديوانه الأول تقريظ الشاعر الإحيائي **حافظ إبراهيم** إذ يقول:

---

(١) نشأة النثر/عمر الدسوقي : ٤٣٥ – ٤٣٦ نقلا عن: الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد.

(٢) الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد : ٤٧٧ – ٤٧٨.

أراك – وأنت نبت اليوم تمشي بشعرك فوق هام الأولينا
وأوتيت النبوة في المعاني وما دانيت حدَّ الأربعينا
فزن تاج الرآسة بعد (سامي) كما زانت فرائده الجبينا
وهذا الصولجان فكن حريصاً على ملك القريض وكن أمينا
فحسبك أن مطريك (ابن هاني) وأنك قد غدوت له قرينا[1]

وقال عنه أمير الشعراء **أحمد شوقي:**

أعرني النجم أو هب لي يراعاً يزيد الرافعيين ارتفاعاً
تأمل شمسهم وهدى ضحاهم تجد في كل ناحية شعاعاً[2]

وقال عنه ربيبه وتلميذه ووارث علمه الأديب **محمد سعيد العريان:** (لقد عاش الرافعي غريباً ومات غريباً فكأنما كان رجلاً من التأريخ بعث في غير زمانه ليكون تاريخاً حياً ينطق بالعبرة ويجمع تجارب الأجيال ويذكر الأمة العربية والإسلامية بماضيها المجيد ثم عاد إلى التاريخ بعد ما بلّغ رسالته لقد حقن الصوت ولكنه خلف صداه في أذن كل عربي وقلب كل مسلم يدعوه إلى الجهاد لمجد العرب وعز الإسلام)[3].

ولقد أنصفه أحد المعاصرين وهو **محمد رجب البيومي** حين قال: (لقد وازن الرافعي بين كاتب وكاتب وهذه الموازنة هي التي تجعلنا نعرف كيف تميز الرافعي وحده بنمط من البيان ليس له شبيه في القديم والحديث وأقرأ أن شئت آثار أبي حامد الغزالي وابن حزم الأندلسي وأبي الفرج ابن الجوزي في القديم، كما اقرأ إن شئت الآثار الإسلامية لمحمد حسين هيكل وعباس محمودالعقاد ومحمد فريد وجدي في الحديث وكلهم علم من الأعلام في دنيا البيان الديني لا مراء، وكلهم كتب فأقنع وصور فأمتع وجادل فأقحم ولكنهم جميعاً شيء والرافعي شيء آخر هؤلاء كتبوا في الأدب فدينوه وكتبوا في الدين فأدبوه ولكنهم لا يحسون إشعاع اللفظ وإيحاءه كما بحثها الرافعي **ولا يبدعون الصورة الكلية الممتدة كما يبدعها الرافعي** ولا يتغلغلون إلى أعمق الأعماق في الفكرة الإسلامية كما يتغلغل الرافعي إذ كان له – رحمه الله – من رقة الاستشفاء في حيز اللفظ الواحد وأن تركب من حرفين ما تجد نظيره فيما تطالع من الدراسات كما كان له من بعد الغوص في المعنى الديني ودقة مرماه ما هو جدير به وحده دون سواه)[4].

---

(١) ديوان حافظ إبراهيم: ١ / ١٤٩ .
(٢) ديوان احمد شوقي:
(٣) حياة الرافعي: ٣٤٩.
(٤) مصطفى صادق الرافعي فارس القلم تحت راية القرآن/ محمد رجب البيومي: ٤٩_٥٠.

ثم يثني **البيومي** الوصف قائلا: (إذا طلبت للرافعي الناثر شبيهاً يحاكيه، فاترك الإنسان إلى غيره من مظاهر الطبيعة، لتجد للرافعي ذلك الشبيه المنشود !.. هل رأيت الرعد المجلجل الذي يأخذ عليك سمعك وشعورك، حين يدوي في الفضاء ؟ هكذا يكون الرافعي، حين يزأر غاضباً، لحرمة تنتهك، أو معصية تذاع. هل رأيت النسيم الهادئ، يرف على الروض الزاهر فيحمل عبيره الفواح إلى النفوس.. يشرح به الصدور ويمتع به الأحاسيس؟.. هكذا يكون الرافعي، إذا رق في عتاب، أو عذب في مناجاة، أو حن إلى حبيب غائب ...ثم هل رأيت النمير العذب، يترقرق به الجدول الصافي، فتنهل منه شراباً لذيذ الرشف، حلو الوقع من اللهاة والصدر؟ هكذا يكون الرافعي، إذا روى حديثاً عن السلف الصالح ويدعو إلى القدوة الحسنة عن هدى وإيمان)[١].

ويقول عنه الدكتور **عبد الوهاب عزام** إنه: (أوتي من النور الإلهي، قلباً ومن الفيض الإلهي ينبوعاً، فلبث دهره نسيجاً وحده، ينير للسالكين، ويسقي الظامئين) [٢].

وأختم القول بشهادة الدكتور مصطفى الشكعة الذي صرّح مادحا فقال: (إن مصطفى صادق الرافعي لم يكن كاتب الفكرة الإسلامية وحسب، ولم يكن رائد الدعوة المؤمنة وحسب، وإنما كان سبباً لهداية كثير من كبار كتاب العربية المعاصرين له، فأصبحوا بفضل دعوته ومن بعده كتاباً مؤمنين، وسدنة في محراب الفكر الإسلامي بعد أن كانوا في طرف آخر بعيد كل البعد عن نطاق العقيدة وجوهر الفكرة الإسلامية، وبعد أن كانوا يتفاخرون بالتحامل عليها ويتظاهرون بالتطاول على حماها. لقد كان الرافعي خيراً وبركة على اللغة العربية الجليلة بمنافحته عنها وخدمته لها وفنائه في الذود عن حياضها، ولقد كان الرافعي كذلك خادماً للعقيدة الإسلامية، مبشراً بالفكرة الدينية، حاملاً لواءها حتى غادر دنيانا ولا زال ممسكاً بقبضة السارية، فهل هناك من بين أدباء المسلمين من يتسلم العلَم؟)[٣].

أما أنا فما عساني أن أقول في ذلك الأديب النابغة العبقري أديب زمانه الكاتب الملهم والشاعر المتيّم ربيب القرآن والسنة، عشيق اللغة والأدب والأصالة، يكفيه فخراً أنه أعطى رأيه بالنابغة والعبقري وفرق بينهما تفريقاً دقيقاً، وكذا الأديب والناقد وتكلم عن الإلهام ومن هو الملهم وكيف يكون، ثم عرج على الشعر والشاعر حيث رسم لنا في النهاية صورة عن الأدب؛ ماهيته وأهميته ودوره في الحياة وفي المجتمع.

كل هذه العناوين تصدى لها الرافعي – رحمه الله – بجدارة وأعطى كلا منها حقه من التفصيل بما تنشرح له الصدور وترتاح له النفوس وتقره العقول ويشهد بصحته راغباً غير مكره المثقف ومن

---

(١) المصدر نفسه: ١١_١٢.

(٣) مجلة الرسالة: العدد ١٨٦، تاريخ ٢٥ / ١ / ١٩٣٧. نقلا عن كتاب: قصص من التأريخ/الرافعي: المقدمة.

(٣) مصطفى صادق الرافعي كاتبا عربيا ومفكرا إسلاميا: ٥٢.

هو أقل ثقافة وكل من له إطلاع يسير على الأدب وفنونه وبالشعر وأصوله ما دام يمتلك العدل والإنصاف في نفسه والموضوعية والحيادة في رأيه، فالرافعي هذا بحق أديب زمانه، حوى من كل شيء أحسنه وجمع من كل شيء أنقاه **وأخرج لنا من بين قديم وحديث أدباً خالصاً سائغاً للقارئين.**

فكيف بنا اليوم ننكر منه ذلك كله وكيف نضع الحجب أمامنا حتى لا نرى من ذلكم الكنز شيئاً، وكيف يحال بين آراء الرافعي وكل هذه الفنون، وكيف يهمش الرافعي هذا بلا أي ذنب يذكر ولا أيّة حجة ترى أو برهان ؟!

أليس من الإنصاف أن تنزل الناس منازلهم ؟!

والله لو أنا أنصفنا الرافعي لكان في مقدمة النقاد والكتاب والشعراء في عصرنا الحديث وبلا منازع. ولست أبالغ إذا أضفيت عليه لقب **المجدد في الأدب والفكر.**

ألم تر أن الحياة أورقت في أوراق ورده، وتحول الحزن إلى فرح عند رسائل أحزانه، ومضى السحاب بفنه يطفئ ناره الحمراء بفيض غيثه، وما عاد يطلع القمر إلا وللناس كل الناس شوق إلى محادثته إثر حديث قمره، وابتهل الأدباء يرجون الوحي طمعاً في معارضة وحيه، وأزيح بالمساكين هم الفقر وضنك العيش عمّن مضى في همه، وتمنت كليلة ودمنة أن لو كان السفّود قد قيل فيها حتى غار ابن المقفع وتقهقرت الريادة لما دنا من رمزه، وللمصاحف أنصار تشاجروا في الذود عنها فارتفعت من بينهم معلنة الصدارة والتفوق رايته، وحار في تأريخه أصحابه ورفعت الهوامش أصواتها تشكوا انعدام مكانها والعجب يملأ من قرأ لذكائه ولحفظه.

ولقد قلتها وأقولها لو لم يكن في دراستي للرافعي –رحمه الله – سوى إطلاعي على مؤلفاته وكتبه لكفاني فخراً وعلماً ولغة وأدباً وغبطة، وندائي للجميع أن ينبغي أن لا تخلو مكتبة أحد منكم من مؤلفاته، وأن لا يغادر أذهانكم قول أبي تمام الخالد:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار في ما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

رحم الله الرافعي فقد عاش غريباً يدافع عن اللغة والدين ومات غريباً لم ينل العناية التي يستحقها والتي تليق بأديب مثله.

الخاتمة:

بعد هذه المعركة المحتدمة التي خضتها أنا والرافعي ضد خصومه خلصت إلى بعض النتائج التي أفرزها هذا البحث، ومنها:

١. إن الرافعي الأديب لم يكن غامضـــا في أســـلوبه إلى الحدّ الذي لا يفهمه الأدباء والمثقفون؛ وإنما هي المعيشة الداخلية التي عاشها الرافعي وحيدا في عزلته عمن حوله من الناس بسبب الصمم المبكر الذي أصابه؛ والتي جعلته يكتب بأسلوب عالٍ يشبه إلى حدٍّ ما أسلوب الكتب

القديمة التي نشأ وترعرع بينها والتي لا يتسنى لكثير من المتهمين فهمها لجهلهم بأساليبها أو إن شئت معناها.

٢. إن العمق والغموض التي لا نُسلِّم بصحتها لكنها الدقة في الأسلوب وفي الفكرة؛ هذه الدقة المتناهية التي استشكلت على كثير من أهل الأدب وغيرهم من القرّاء كانت ضرورة لا بدّ منها لرجل أديبٍ مجدد مثل الرافعي وذلك لأسباب عدة منها:

أ. إن الرافعي مثل حلقة وصل بين الماضي التليد والحاضر الجديد لذا لا بدّ لرجل عاش في هذا الزمن وله هدف كهذا أن يقترب أسلوبه من أسلوب القدماء مع شيء من المعاصرة يمزجها به.

ب. إن الرافعي لمّا رأى المؤامرة على اللغة كبيرة وأنها والأدب باتا يحتضران أراد أن يحافظ عليها من الضياع ويحفظها في معجم الرافعي الخاص.

جـ. أراد الرافعي أن يثبت لأولئك الذين يتشدقون بالأدب من دعاة التجديد _ولا تجديد_أنه قادر على أن يجدد في الأدب بما يحفظه ولا يضيعه؛تجديدا كتجديد أبي تمام وكفى.

٣. يمثل الرافعي صاحب مذهب فريد في الكتابة الأدبية قد لا نجد له نظيرا في عصره والعصور التي تلته، لما يتمتع به من نكهة خاصة في أسلوبه ومعانيه، وهو ما جعله ينعت بقولهم (أمة وحده) أو قولهم (نسيج وحده).

٤. حظي الرافعي بمدح وإطراء عمالقة الفكر والأدب من أبناء جيله ومن جاء بعدهم ممن نهجوا نهج الأدب الصحيح، وفي ذلك ما يكفي لدحض الشبه التي أثيرت حوله وما يؤكد له الريادة.

٥. إن ما قيل عن الرافعي من كونه من ذوي العاهات؛ وهي الصفة التي ينتقص بها من الرافعي، أصبحت فيما بعد حجة على هؤلاء الحساد خصوصا بعد رؤيتنا لأسفاره الخالدة وما سطره لنا قلمه الساحر، وجعل منه يحظى بمنقبة قد تظاف إلى مناقبه الأخرى يحق لنا أن نسميه بعدها: **(معجزة الأدب)**.

المصادر والمراجع

١- إعجاز القران والبلاغة النبوية ، دار الكتاب العربي ، ط ٩ ، ١٩٧٣ م .

٢- أوراق الورد رسائلها ورسائله ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط ٩ ، ١٩٧٣ م .

٣- بدائع الحكم من وحي القلم

٤- تحت راية القران ، صحح أصوله محمد سعيد العريان ، دار الكتاب العربي ، ط ٧ ، ١٩٧٤ م

٥- حياة الرافعي ، محمد سعيد العريان ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٥٥ م

٦- ديوان أحمد شوقي

٧- ديوان حافظ إبراهيم

٨- الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد ، د. مصطفى نعمان البدري ، دار الجيل بيروت ، دار عمار ، ط١ ، ١٩٩١ م .

٩- رسائل الأحزان في فلسفة الجمال والحب ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ،ب ط ، ١٩٩٩ م

١٠- رسائل الرافعي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ب ط ، ١٩٥٠ م.

١١- روائع الطنطاوي , إبراهيم مضواح الألمعي , دار المنارة , ط١ , ٢٠٠٠ م .

١٢- ساعات من حياتي , طاهر الطناحي , الدار المصرية للتا ليف والترجمة , ب ط , ب ت .

١٣- على السفّود ، صححه وعلق عليه حسن السماحي سويدان ، راجعه وقدم له د . عز الدين البدوي النجار ، دار البشائر ، دمشق ، دار المعلمة ، الرياض ،ط ٢ ، ٢٠٠٠ م

١٤- عمالقة عند مطلع القرن عبد العزيز المقالح ، دار الآداب ، بيروت .

١٥- قصص من التأريخ

١٦- كلمة وكليمة ، اعتنى به بسام عبد الوهاب الجابي ، دار ابن حزم ، ط ١ ، ٢٠٠٢

١٧- مصطفى صادق الرافعي رائد الرمزية المطلة على السوريالية , د. مصطفى الجوزو , دار الأندلس , بيروت لبنان , ط١ , ١٩٨٥ م .

١٨- مصطفى صادق الرافعي فارس القلم تحت راية القران , د. محمد رجب البيومي , دار القلم دمشق , ط١ , ١٩٩٧ م .
١٩- مصطفى صادق الرافعي كاتبا عربيا ومفكرا إسلاميا , د. مصطفى الشكعة , الدار المصرية اللبنانية , القاهرة , ط ٣ , ١٩٩٩ م .
٢٠- نشأة النثر ،عمر الدسوقي
٢١- من أدب الرافعي ومعاركه, د.عباس بيومي عجلان, دار المعرفة الجامعة, الإسكندرية,ب ط,ت.من أعلام الأدب والفن احمد إبراهيم بيروت ١٩٥٢م .
٢٢- من أعلام الأدب والفن احمد إبراهيم بيروت ١٩٥٢ م .
٢٣- وحي القلم ، تحقيق سعد كريم الفقي ، مكتبة الأمان للنشر والتوزيع، مصر ، ب ط ، ١٩٩٩م .

المجلات والبحوث :

١- مجلة الأدب الإسلامي ، العدد ٤٣ و ٤٤ ، ٢٠٠٤ م ، فصلية تصدر عن رابطة الأدب الإسلامي العالمية.
٢- مجلة الرسالة: العدد ١٨٦، تاريخ ٢٥ / ١ / ١٩٣٧
٣- مجلة المقتطف ، **إبريل ١٩٢٥.**
٤- مجلة الوحدة الإسلامية ، السنة الثانية العدد ٢١ ، ٢٠٠٣ م ، تصدر عن تجمع العلماء المسلمين .
٥-مجلة كلية الآداب/ جامعة بغداد ١٩٧٩